تراثنا بين شرق وغرب

- معابر الانتقال
- بين أيدى المستشرقين

على المعابر التاريخية المشهورة التى انتقلت عليها الحضارة من شرقنا الإسلامى إلى الغرب ،

انتقل تراثنا مع ثمار حضارتنا ، عبر الدردنيل والبحر الأسود وقزوين ، وصقلية وإسبانيا ، فأخذ دوره هناك فى حركة الإحياء (الرينسانس) التى بدأ بها تاريخ النهضة الحديثة فى أوربا .

كان اتصال الغرب بالشرق قد بدأ من زمن بعيد فى علاقات سلمية ، سياسية وتجارية ، أو فى صراع حربى . فانبهر الأوربيون بما شهدوا هنا من معالم الحضارة الإسلامية ، وحاولوا أن ينقلوا منها ما وسعته طاقة الغرب فى عصوره الوسطى .

ثم لما ازدادت حركة الانتقال على المعابر الكبرى ، وجد الغرب فى ذخائر تراثنا ما يمكنه من وضع أسس وطيدة هيأته لدوره القيادى بعد أن غربت الشمس عن شرقنا .

ويقترن فجر الإحياء فى أوربا ، الرينسانس، بذلك العبور التاريخى لتراثنا . ويشهد مؤرخو الحضارة الغربيون، من أمثال ولز ولوبون ودى بور ، وأوليرى وتوينبى وكراتشكوفسكى .... بأن الفكر الإسلامى هو الذى قدم إلى الغرب شعاع النور الذى أضاء مسراه إلى عصر نهضته الحديثة .

ومما يسجله تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ، أن الأمير فريدريك أسس جامعة نابولى عام ١٢٢٤ م وجعلها مدرسة لنقل العلم العربى إلى العالم الغربى ، وأن جامعتى بولونيا وبادوفا قامتا على الثقافة العربية ، وبخاصة فلسفة ابن رشد وطب ابن سينا .

وفى مراسيم لويس الحادى عشر سنة ١٤٧٣ م ، أن على المعلمين فى باريس أن يدرسوا لطلاب الجامعة كتبَ أرسطو ، فى شروح ابن رشد وتوماس الأكوينى وألبرت الكبير . وفى صقلية اعتمدت جامعة باليرمو— أقدم جامعة غربية — على الثقافة العربية التى حرص الأمير ريجار « روجيرو » على استعارتها منا ، واستقدم

لها الأعلام من علماء العرب وكان منهم « الإدريسى » الذى ألف لأمير صقلية كتاب (نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق) وصنع كرة أرضية من الفضة ، كُتبت عليها بالذهب أسماءُ الأقاليم والمدن الكبرى .

ولمدى قرون ، ظل الطب العربى أساس الدراسة الطبية فى جامعات أوربا ، وكان قانون ابن سينا — الذى ترجمه جيرار الكيمونى إلى اللاتينية — ممثلاً للمدرسة العربية فى الطب ، وبقى محتفظاً بمكانته فى جامعتى مونبليه ولوفان حتى أخريات القرن السابع عشر . كما ترجم كتاب الكليات لابن رشد إلى اللاتينية باسم « كوليجه » وصار المتن الشهير الذى كان يدرس فى جامعات أوربا التى تأخذ عن المدرسة العربية فى الطب . كما دخلت قوانين ابن سينا الأربعة الأولى ، من عام ١٣٤٠ م فى المنهج الرسمى المقرر على المرشحين للدرجات العلمية فى الطب .

ولو مضيت أتتبع مكان تراثنا فى النهضة الأوربية بعد أن وصل إليها على معابر الانتقال ، لاستنفدت الوقت والجهد دون أن أبلغ من الموضوع مبلغاً ذا بال . فحسبى إذن أن أشير عليكم بالرجوع إلى ما يحضرنى الآن ذكره من كتب غربية حديثة ، رصدت آثار تراثنا بعد عبوره ، منها مثلاً :

— كتاب كراتشكوفسكى فى « تاريخ الأدب الجغرافى العربى » وفيه دليل لتراثنا هناك ، فى الجغرافيا والفلك والرياضيات ، وقد نشرت جامعة الدول العربية ترجمته الكاملة ، للدكتور صلاح الدين هاشم .

— كتاب « حضارة العرب » لجوستاف لوبون » ، وفيه عرض واف لما أخذ الغرب عنا فى مختلف جوانب الحضارة ، ترجمه الأستاذ عادل زعيتر .

— كتاب « شمس الله على الغرب » (فضل العرب على أوربا) للمستشرقة الألمانية « سيجريد هونكه » ويتابع أثر العلوم الطبيعية والطب والرياضيات العربية فى الغرب . ترجمه الدكتور محمد فؤاد حسنين .

— الإسلام والكوميديا الإلهية : لميجويل آسين بلاسيوس . طبعت ترجمته

الإنجليزية فى لندن ١٩١٩ . وفى مقدمته بيان لما انتقل إلى أوربا على معبر إسبانيا من تراث الإسلام الفكرى والروحى والأدبى ، ثم يعرض بتفصيل للمنابع الإسلامية ، ومنها المعراج ورسالة الغفران ، لكوميديا دانتى ، أمجد وأشهر نص أدبى أوربى فى فجر النهضة الحديثة .

* * *

تراثنا بين أيدى المستشرقين :

وتمت حركة الإحياء ، وتم معها التحول التاريخى الحاسم للحضارة من الشرق إلى الغرب .

وكان الظن أن يفتر اهتمام الغرب بتراثنا ، وقد وصل إليه أكثره على معابر الانتقال الكبرى .

لكن الغرب ازداد حرصاً على اقتناء ما بقى للشرق من تراثه ، ليؤدى دوراً جديداً فى حركة الاستعمار .

وقد نقلنا آنفاً ، حديث الأستاذ « كرد على » فى خطط الشام ، عن دول أوربا — ومنها فرنسا وجرمانيا وبريطانيا وهولاندة وروسيا — التى أخذت منذ القرن السابع عشر ، تجمع مخطوطات تراثنا بوساطة وكلائها وقناصلها والأساقفة والمبشرين من رجال الدين . وكذلك انتشرت رسلهم وعملاؤهم فى أنحاء المشرق ، بحثاً عن هذه المخطوطات . ولا تنتظروا منى أن أحصى ما جمعوا من ذخائر تراثنا فالأمر فيه يفوت العد والإحصاء . يكفى أن ترجعوا إلى كتاب بروكلمان (تاريخ الأدب العربى) مثلاً ، لتقرأوا ما أحصى من مخطوطات الأدب العربى فى دور الكتب الأوربية . وأذكر — على سبيل المثال كذلك — أن فهارس المخطوطات العربية فى مكتبة برلين وحدها ، كانت تملأ — إلى عام ١٩٣٠ — عشرة مجلدات ضخمة ، وأن أحد طلاب « جامعة برنستون » القدامى أهدى إلى جامعته مكتبة فيها ستة آلاف مخطوط عربى كانت فى حوزة واحدٍ فحسب ، من مستشرقى الإنجليز .

واستطاعت روسيا ، منذ إنشاء المتحف الآسيوى فى بطرسبورج — لينينجراد — سنة ١٨١٨ م أن تدخل فى السباق الدولى على مخطوطات تراثنا ، فتظفر بمئات الألوف من ذخائره . وقد بلغ رصيد معهد شعوب آسيا التابع لأكاديمية العلوم للاتحاد السوفييتى ، اثنى عشر ألف مخطوط حتى سنة ١٩٦٣ ، بينها

خمسة آلاف مخطوط عربى ، إلى جانب سبعة آلاف مخطوط عربى فى مكتبات أخرى بلينينجراد .

وبلغ رصيد معهد الاستشراق فى طشقند عاصمة أوزباكستان ، ثمانين ألف مخطوط باللغة العربية واللغات الشرقية .

وهناك مجموعات أخرى فى قازان ، وباكو ، وتبيليسى ، وخاركيف ، لا أحصى رصيدها عدًّا . .

وهذا يعطيكم فكرة عن مقدار ما جمعوا من مخطوطات ملئوا بها خزائن الكتب العربية فى الفاتيكان بروما ، والأمبروزيانا بميلانو ، وباليرمو بصقلية ، والناسيونال بباريس ، وڤيينا وهاله وبرلين والأسكوريال ، وليدن بهولاندة ، والمتحف البريطانى بلندن ، وموسكو ولينينجراد وطشقند بالاتحاد السوفيتى ، عدا مئات المكتبات الخاصة بعلماء الاستشراق وهواة جمع المخطوطات .

وفى القسم الأخير من هذه المحاضرات ، تقرءون قصة مثيرة لرحلة تراثنا من مخطوطات البردى إلى أوربا ، وتنافس دول الغرب على اقتنائها ، دون أن يعنينا سباقهم على الكنز من قريب أو بعيد .

وتقرءون معها ، فصولاً من قصص أخرى ، تروى ما كان من حرص الأوربيين على جمع تراثنا . وما بذلوا ويبذلون فى سبيله من جهد ومال .

* * *

وُضع هذا التراث بين أيدى المستشرقين الذين عكفوا عليه فى شبه رهبنة ، يفحصون نصوصه ويحققونها ، وينشرونها على أحدث منهج للتحقيق والضبط والنشر .

ثم انتقلوا بعد أن جدوا فى جميع التراث وفهرسته وتحقيقه ونشره ، إلى المرحلة الهامة التى من أجلها كان الجهد السخى المبذول : فأقبلوا على درس هذا التراث وقد توزعوه فيما بينهم ، فتفرغ نفر منهم لدرس تاريخنا السياسى ، وآخرون للمذاهب الدينية والفقه والشريعة والحديث ، وفريق ثالث اختص بدراسة اللغة واللهجات والأدب ، وكتيبة رابعة وخامسة . شُغلت بالنظر فى كتب العلوم . . . وكأنما كانت

تحركهم قوة منظمة لا تدع مجالاً لجانب من جوانب حياتنا إلا عينت له من يختص به ، ولا تسمح بفراغ فى ميدان دراسة التراث ، دون أن تجد له من يملؤه .

وبلغوا فى دراستهم الجادة للشرق والعربية والإسلام ، من التخصص والاستيعاب حداً مذهلاً ؛ أقول هذا وأنا من أزهد الناس فى مثل هذه الألفاظ الضخمة ، لكنى لا أجدهنا سواها ما يصف صنيع هؤلاء الأجانب الغرباء! وما أراكم إلا ملتمسين لى العذر ، حين أذكر لكم مثلاً أن المستشرق الإيطالى « كايتانى » المتخصص فى دراسة تاريخ الإسلام ، جهز على نفقته الخاصة ثلاث قوافل لترتاد مناطق الفتح الإسلامى وترسمها جغرافياً وطبوغرافياً . وجمع كل الدوريات والمرويات عن حركة الفتوح ، فى العربية والسريانية واللاتينية ، وقابلها واستخلص منها تاريخ الفتح فى تسعة مجلدات بعنوان "حوليات الإسلام : Amnali del Islam" بلغ بها سنة أربعين هجرية . وكان حين الطبع ، يبعث بتجارب المطبعة إلى المتخصصين فى الموضوع لإبداء ملاحظاتهم عليها . ثم طبع الحوليات طبعة فاخرة وزعها على الدوائر العلمية . وكلفته هذه العملية كل ثروته الطائلة فأفلس .

وإليكم مثلاً آخر من تخصص القوم وجدهم ، وليكن هذه المرة من المجال التاريخى الأدبى ، فأذكر المستشرق الألمانى « كارل بروكلمان » الذى دخل الميدان عام ١٨٩٠ بكتابه عن " العلاقة بين كتاب الكامل فى التاريخ لابن الأثير ، وكتاب تاريخ الطبرى " وكان موضوع رسالته للدكتوراه ، بجامعة ستراسبورج . وفى عام ١٨٩١ أخرجت له مطبعة ليدن " ديوان لبيد " مترجماً عن طبعة ڤيينا ومزوداً بحواش وشروح . ثم مضى يتابع بحوثه ودراساته فى تراثنا الأدبى ، وينشر الكتاب بعد الكتاب من ذخائره ، حتى بلغت مؤلفاته ومنشـــوراته نحو مائة وعشرين ، فيما بين سنتى (١٨٩٠ : ١٩٥٤) لم تكد ســـنة منها تمر دون أن يضيف إلى مكتبـــة الاستشراق أثراً جديداً . وإلى جانب هذه النصوص المحققة من تراثنا ومؤلفاته فيها : كتب فى دائرة المعارف الإسلامية مائة وثمانى وعشرين مادة .

وفى مجال الفقه والشريعة ، أقدم المستشرق الألمانى « يوسف شاخت » الذى درستُ عليه فقه اللغة فى كلية الآداب بجامعة القاهرة :

— فى سنة ١٩٢٣ أخرجت له مطبعة هانوفر تحقيقه لكتاب (الحيل والمخارج للخصّاف) بمقدمة وتعليق .

— فى سنة ١٩٢٤ ، نشرت له مطبعة ليبتسج (كتاب الحيل فى الفقه) للقزوينى ، مع مقدمة وتعليق .

— فى سنوات ١٩٢٧ : ١٩٣٠ ، أخرجت له مطبعة هايدلبرج ، كتاب (المخارج فى الحيل لمحمد بن الحسن الشيبانى) مع مقدمة وتعليق .

— فى سنوات ١٩٢٨ : ١٩٣١ ، أخرجت له مطبعة برلين (الجامع الكبير) فى الشروط .

— فى سنة ١٩٣١ ، نشر كتاب (دين الإسلام) ط برلين .

— « « ١٩٣٣ ، نشرت له مطبعة ليدن ، كتاب الجهاد والجزية وأحكام المحاربين ، من (كتاب اختلاف الفقهاء) لابن جرير الطبرى .

ثم نشر بعد ذلك كتاباً عن الأحكام فى الدور الأول للفقه الإسلامى (١٩٥٠) وخلاصة تاريخ الفقه (باريس ١٩٥٣) ونشأة الفقه فى الإسلام (أكسفورد ١٩٥٣) .

و « شاخت » هو الذى كتب لدائرة المعارف الإسلامية ، أكثر المواد المتعلقة بالفقه ورجاله ، ومواد الأصول ، وعلم الكلام .

وفى مكتبة الاستشراق الروسى ، نجد لكراتشكوفسكى عميد مستعربى الروس ، نحو أربعمائة وخمسين كتاباً وبحثاً فى التراث العربى . وقد نشر المجمع العلمى للاتحاد السوفييتى ، ستة مجلدات لأعمال هذا المستشرق الكبير ، منها كتابه القيم فى تاريخ الأدب الجغرافى العربى .

* * *

ثم لا أمضى فى تتبع هذا الجهد السخى الذى أعترف بقصورى عن استيعابه ، ولعل فيما عرضت منه ما يكفى لإنصافهم ، والإلمام بما بذلوا فى جمع تراثنا وصيانته ونشره ودرسه .

هنا يعرض سؤال :

— ما الذى أغرى الغرب الحديث بمتابعة البحث فى تراثنا ، بعد أن أدى غرضه

فى خدمة عصر الإحياء ، وصار للغرب الدور القيادى للحضارة المادية والعلمية ؟

هل يفتش فيه عن شىء يُحتمل أن يكون فاته فيما عرف من تراثنا ؟

أو هل يرى فيه ميراثاً إنسانياً من حقه أن يصان وينشر ، ما دام أهله قد نبذوه وأضاعوه ؟

قد يبدو الأمر كذلك مع قلة من علماء الاستشراق المخلصين الأمناء .

لكن الواقع التاريخى يؤكد أن حركة الاستشراق جملةً ، وُجِّهت فى مراحلها الأولى إلى خدمة غرض أخر ، لا يعنيه تراث الشرق إلا بقدر ما يكشف عن عقليات شعوبه وأمزجتهم وأسرار ذاتهم ومواضع القوة والضعف فيهم ، توطئة لحملات التبشير وموجات الاستعمار التى تدفقت على شرقنا الآسيوى الإفريقى ، من القرن الثامن عشر .

فحين نسأل التاريخ عن حركة الاستشراق كيف نشأت ، يلقانا جوابه الصريح بأنها قامت أول ما قامت فى رعاية الكنيسة الكاثوليكية وخضعت لإشراف مباشر من كبار أحبارها .

وتقديراً لدقة هذا الجانب وحرجه ، أدع الكلمة للمؤرخ اللبنانى المسيحى « الفيكونت فيليب دى طرازى » فيقول :

« راح البابوات فى القرنين الثانى عشر والرابع عشر ، يُغرون قُصَّادهم ورسلهم ورهبانهم بتعلم العربية ترويجاً لخطتهم الكاثوليكية . وقرر مجمع ڤيينا المنعقد فى سنة ١٣١١م ، برياسة « البابا إقليميس الخامس » أن تؤسس دروس عربية وعبرية وسريانية فى رومة على نفقة الحبر الأعظم ، وفى باريس على نفقة الملك ، وفى أكسفورد وبولون على نفقة الرهبان ، وذلك لكى يكون منهم المبشرون والوعاظ الذين يطوفون بالبلاد الشرقية . وكان سفراء الفاتيكان مكلفين من قبل البابا بمراقبة دروس العربية[١] .

ويعدون من المآثر الباقية للبابا « لاون العاشر » أنه « احتفل سنة ١٥١٤ م بافتتاح أول مطبعة عربية فى مدينة فانو على ساحل الإدرياتيك[٢] .

---

(١) دى طرازى : خزائن الكتب العربية ٢/٥٧٧ .

(٢) دى طرازى : « « ٢/٥٧٨ - .

كما يذكرون من مآثر البابوات بيوس الرابع : (١٥٦٥ م) وبولس الخامس (١٦٢١ م) وأوربانس الثامن (١٦٤٤ م) وإقليميس الحادى عشر (١٧٢١ م) مساعيهم الجادّة فى إحراز المخطوطات العربية « فقد وجه إقليميس الحادى عشر إلى الشرق سنة ١٧٠٧ عالماً لبنانياً اسمه إلياس السمعانى لابتياع ما يعثر عليه من المخطوطات فى لبنان وسورية وفلسطين ومصر. وفى عام ١٧١٥ كلف لبنانياً آخر اسمه يوسف شمعون السمعانى أن يرتحل إلى المشرق للغرض نفسه. كما وجه سنة ١٧١٩ إلى الموصل كاهناً مارونياً قبرصى الأصل، اسمه أندراوس إسكندر، لإحضار ما يستطيع من مخطوطات »[١].

وجدّ خلفاؤه على أثره، فكانت بعثاتهم ورسلهم تطوف بالشرق الإسلامى، من مصر والشام والعراق إلى ما وراء النهر والهند، يشترون أندر المخطوطات. وتبارى أتباعهم من رجال الإكليروس الشرقى لإتحاف مكتبة الفاتيكان بنفائس الذخائر العربية. وبلغ ما زود به الكردينال فريدريك رئيس أساقفة ميلانو. مكتبة الأمبروزيانا من ذخائر العرب ألوفاً عدة. ثم جاء الأب واتى فأضاف إلى ثروتها من هذه الذخائر ستة آلاف مخطوط[٢].

والمستشرق « كايتانى » الذى أشرت آنفاً إلى ما أنفق من جهد ومال فى تأريخ حركة الفتح الإسلامى : سجل فى مقدمة « حوليات الإسلام » اعترافاً صريحاً بأنه إنما يريد أن يفهم سر المصيبة الإسلامية « كاتاستروفيكا إسلاميكا » التى انتزعت من الدين المسيحى ملايين من الأتباع فى شتى أنحاء الأرض، ما يزالون حتى اليوم يدينون برسالة محمد ويؤمنون به نبياً ورسولاً !

ويلاحظ هنا أن التوجيه التبشيرى للاستشراق ؛ قد ساير حركة جمع التراث فى دورها الأول الذى قصد به إلى الانتفاع بما سبق إليه الشرق الإسلامى من علوم وثقافات. وليس من العسير علينا أن نفهم هذه المسايرة ؛ إذا أدركنا أن تراثنا حين عبر إلى أوربا، كانت البيئات العلمية تأخذ عنه علومنا ومعارفنا. على حين التمست الكنيسة فيه ما تسخره لخدمة أغراضها الدينية.

* * *

(١) دى طرازى : خزائن الكتب — ٢٠/٥٨٠ .
(٢) دى طرازى : خزائن الكتب — ٢/٥٨٣ .

ولم يعْدُ الأستاذ الباحث « فيليب دى طرازى » الحق التاريخى . حين قال فى الفصل التاسع من كتابه الخزائن :

« إن الاستشراق قام فى بداية أمره لغاية دينية محضة . ثم توسع علماء الاستشراق فجعلوه سياسيًّا ولغويًّا معاً » .

وقد مضى الكلام عن التوجيه الدينى للاستشراق .

فلنقف عند قوله « سياسياً » لنرى نصيب السياسة فى توجيه حركة الاستشراق .

* * *

نشطت حركة الاستشراق قبيل الغزو الاستعمارى ، وسايرته حيناً من الدهر ، تُقدم إليه ما هدَى إليه تراث الشرق من فهم عقليته ومزاجه . وتعد له الرسل والدعاة الذين انبثوا فى أنحائه واختلطوا بأهله : تجاراً ومبشرين ودعاة وجنودَ استعمار . .

ولاحِظوا معى أن أول جماعة أُسِّست لخدمة الاستشراق والانتفاع بجهد رجاله سياسيًّا ، قامت فى فرنسا سنة ١٧٨٧ م تحت إشراف وزارة المستعمرات . ولم يكن حرص ملوك فرنسا بأقل من حرص أحبار الكنيسة على إيفاد بعثات إلى الأمصار العربية لجلب ذخائر تراثها . وكان سفراؤهم يُندبون رسميًّا لهذا العمل السياسى . وفى كتاب (خزائن الكتب العربية : ٢ / ٥٨٧) أن فى مكتبة دير الشير بلبنان . مخطوطة من كتاب (وفيات الأعيان لابن خلكان) على هامشها حاشية أثبتها « أبو النصر الخازن » الذى كان قنصلاً لفرنسا فى بيروت على عهد الملك لويس الرابع عشر . وتنص الحاشية على أنه « فى سنة ١٦٧١ م أرسل عالى الجناب الملك لويس الرابع عشر رسله إلى جميع بلدان الإسلام لشراء المخطوطات وزود مبعوثيه بأوامر شريفة إلى جميع القناصل الفرنساوية ليضعوا رجالهم وأموالهم فى خدمة هؤلاء المبعوثين » .

وتضيف الحاشية ، أن مستشاراً للملك توجه إلى قبرص ، فالشام ، فمصر ، فاسلامبول ، فبغداد ، وظفر من كل بلد منها بكثير من المخطوطات .

* * *

والبحث العلمى التاريخى متى انحرف عن غايته الأصلية من خدمة العلم

وكسب المعرفة والبحث عن الحقيقة ، أعوزته النزاهة التى هى جوهر البحث العلمى ، والحرية التى هى مناط سلامته . وعلماء الاستشراق بشر مثلنا ، يتعصبون لدينهم وقومياتهم مثلما نتعصب لديننا وقوميتنا . وما ينبغى أن نلومهم على هذا التعصب أو نغضب لعجزهم عن التجرد من أهوائهم ، وإنما نحن هنا بصدد قضية علمية وتاريخية ، تلزمنا بأن نكون على وعى بما لابس عمل أكثر المستشرقين من انحراف لم يكن منه بد ، بحكم ما استهدف الاستشراق فى نشأته الأولى من خدمة الكنيسة والاستعمار .

وليس عليهم بأس فى أن يقولوا فينا ما يقولون ، متى كانت أقوالهم معبرة عن رأى لهم ، أو صدى لاستهوائهم بما راج فى بيئاتهم من أقاويل عنا .

لكن البأس كل البأس ، أن يحمل « البحثُ العلمى » وزرَ هذه الأهواء ، فتخرج بحوث لهم مشحونة بأباطيل يزعمون أنها مما هدى إليه استقراؤهم لتراثنا ، ويفرضون لها حرمة علمية ، حين يسوقون أدلة وشواهد من نصوص فى التراث ، انحرف بها الهوى والتعصب ، فضلوا ضلالاً بعيداً .

وقد حدثتكم من قبل ، عما ندين لهم به من إنقاذهم لتراثنا المضيع ، ودأبهم على جمعه وتحقيقه ، وأشرت إلى دقة منهجهم فى النشر بما يكفى لإنصافهم .

وبقى أن ألفت إلى ما يلقانا فى دراسات كثير منهم ، من التواء الأساليب فى توجيه العبارات ، واضطراب مناهجهم فى سوق الأخبار ، واعتسافهم فى تأويل النصوص لتعطى نتائج خطرة محرفة ، تمس عقيدتنا وتشوه تاريخنا ، وتؤيد مزاعم بعينها مما يروِّجه أعداء الإسلام والعرب والشرق .

يكفى مثلاً أن تقرأوا ما كتب « يوسف شاخت » فى مادة « أصول » أو تفسير » أو غيرهما من مواد دائرة المعارف الإسلامية . وتعليق أستاذنا « أمين الخولى » عليها فى الترجمة العربية ، لترَوا إلى أى حد بلغ بشاخت جموحُ التعصب وشطط التأويل واعتساف الملحظ وزُور الدلالات .

وشاخت كان أستاذاً فى جامعتنا ، يدرس لنا فقه اللغة ويرتدى زى العلماء . وله فى دوائر الاستشراق منزلة عالية ، أهَّلته لأن يتنقل بين الجامعات الغربية محاضراً عن الإسلام ، ثم اختير للإشراف على طبعة جديدة من دائرة المعارف الإسلامية ، تخرجها مطبعة ليدن فى هولاندا .

وما من ريب فى أن شاخت وأمثاله ، ينحرفون عن قصد وعمد ، استجابة لتعصبهم ، ويخضعون فى دراساتهم للهوى الجامح .

ولكن منهم كذلك من يتجرد للبحث النزيه ، ثم يخونه الحق أثراً لما يسيطر على ذهنه من أفكار سابقة عن عقيدتنا وتاريخنا ، يعز عليه أن يتخلص من احتكامها فى توجيه النصوص .

وهذا ما لم ينج منه ، مع الأسف ، المستشرق الجليل « كراتشكوفسكى » فى كتابه القيم " تاريخ الأدب الجغرافى العربى " إذ سيطرت فكرته عن نبى الإسلام ، على بحثه فى القرآن والحديث ، واحتكمت فى توجيه النصوص .

* * *

وننظر فى الميدان الأدبى — حيث مجال التعصب فيه أقل — فنرى المستشرقين قد صح لهم علم العربية ثم أعوزهم ذوقها . فتعثرت نصوصه فى أيديهم لقصورهم عن لمح دلالات ألفاظها وفقه أسرارها فى البيان وطرق مجازها وأساليب تعبيرها . ولا مجال لأن أطيل هنا بعرض نماذج من أخطائهم فى فهم نصوص تراثنا وتعثرهم فى توجيه سياقها ، فحسبى أن أحيلكم على ما سبق لى أن عرضته من ذلك بمزيد تفصيل وبيان ، فى فهم المستشرق الإنجليزى نيكلسون[1] والمستشرق الإسبانى ميجويل أسين بلاثيوس[2] لنص رسالة الغفران . مع ما تقرءون من تعليق على كتاب (تاريخ الأدب الجغرافى العربى) لكراتشكوفسكى[3] .

* * *

وآن لنا بعد هذه الرحلة مع تراثنا من قديمه البعيد ، أن نطل على سير الزمن به فى العصر الحديث .

---

(١) انظر نسخة نيكلسون بين نسخ الغفران ، فى مقدمة النص الذى حققناه من (رسالة الغفران) ط الذخائر .

(٢) الغفران : دراسة نقدية — ص ٣٢٤ وما بعدها ط ٣ دار المعارف بالقاهرة .

(٣) فى المجلد الثانى ، من الترجمة العربية للكتاب ، نشر جامعة الدول العربية .

تراثنا من فجر اليقظة
إلى العصر الحاضر

— بعد ليل طويل

— فى دوامة العصر